



إعجاز القرآن والمراجعة الواجبة

- ورقة عمل -

إعداد

أ. د. محمد محمد أبو موسى

جامعة الأزهر - مصر





كان برهان نبوة سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مختلفًا اختلافًا ظاهرا عن كل من سبقه من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد أنزل الله ﷻ على أنبيائه كتبه، ولم تكن برهانَ نبوة، وإنما أيد الأنبياء بمعجزات أخرى؛ مثل خروج ناقة صالح ﵇ من الصخرة، وخروج إبراهيم ﵇ من النار التي صارت بردا وسلاما عليه. ولهذا كان نزول جبريل ﵇ على رسولنا صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكتاب المعجز حادثةً فريدة في تاريخ البشر. وقد أشار ﷺ إلى تميز برهان نبوته ﵇، وأنه غاير كل ما كان عليه الأنبياء قبله عليهم السلام، وأنّ الله سبحانه خصه بهذا؛ فقال ﵇ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «ما مِن الأنبياء مِن نبي إلا قد أُعطي مِن الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى اللهُ إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1].

لما كانت كتب الأنبياء التي هي شرائعهم غير معجزة تسللت إليها ألسنة الناس؛ فدخلها التحريف والتبديل، فتغيرت الكتب؛ فليست التوراة التي بين أيدي الناس هي التوراة التي أنزلت إلى موسى ﵇، وكذلك الإنجيل. وهذا بخلاف آيته ﵇؛ فإنّ إعجاز الوحي الذي أنزله الله عليه طارد لكل كلمة، بل كل حرف يحاول أي لسان أن يزرعها فيه، فهو باقٍ بيننا كيوم أُنزل، وهذه نعمة ليس للفضل فيها نهاية.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ، واللفظ لمسلم.



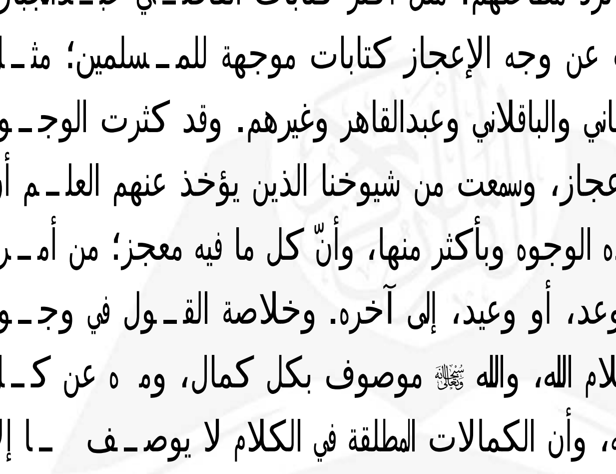


ثم إننا نسمع أمر الله من كلامٍ معجز فلا يخامرنا شك في أننا نسمع الأمـر والنهي من الله، وأنّ الصوت الذي يتهادى إلى أسماعنا هو صوت المبلغ، أمـا البلاغ فهو كلام الله الذي لا يمكن أنْ يكون من غيره ﷻ، وهذا مما يوجبه أ ا الرسالة الخاتمة، ويجب أن يتلقاها كل جيل كما تلقاها الجيل الأول من غير أن يزاد فيها حرف أو ينقص منها حرف.

والقول بأن القرآن معجز مما لا يجوز فيه خلاف؛ لأن القرآن أخبر بـذلك في آيات كثيرة، أما معرفة وجه الإعجاز فهذا مما يجوز الخلاف فيه لأنه بـاب مفتوح للنظر والتدبر والاجتهاد. وحديث القرآن عن أنه معجز حديث متناهٍ في التوكيد، وذلك مثل قوله تعـالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]. راجع الآيةَ واسألْ: هل رأينا الجن والإنس يجتمعون لمواجهة موقـف مـن مواقـف التحدي؟! ثم راجع الإنس بكل لغا م وأعراقهم وألسنتهم ومعهم الجن يحاولون أن يضعوا ألسنتهم جميعا في فمٍ واحدٍ منهم ليأتي بمثل هذا القـرآن، أو بعـشر سور من مثله، أو بسورة من مثله! ثم لاحظ بعث وإحياء كل الأجيـال الـتي بادت من الثقلين، وحضور الأجيال التي لا تزال في كتم الغيب؛ كـل هـؤلاء حضور، وكل هؤلاء بعضهم لبعض ظهير، وكل هؤلاء عاجزون، وهذا مـن معنى الآية وهو عجيب جدا! وفيه أن برهان نبوة محمد صلوات الله وسـلامه عليه كبرهان الألوهية، وكأنك قلت: "لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بأرض كهذه الأرض، أو سماء كهذه السماء؛ فلن يأتوا ولو كان بعضهم لبعض





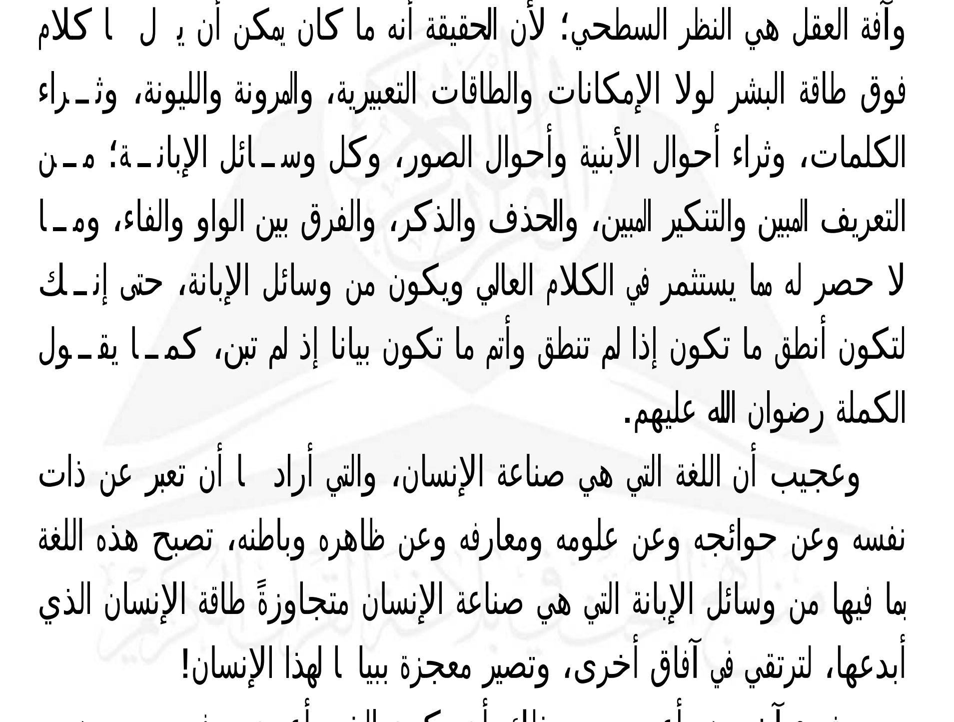


ظهيرا"، ومع أن هذه الآية وحدها كافية فقد تكرر هذا المعنى كثيرا في الكتاب العزيز.

والكتابات في هذه القضية التي تثبت الإعجاز كتابات موجهـة إلى غـير المسلمين، أو كتابات ترد مطاعنهم؛ مثل أكثر كتابات القاضـي عبـدالجبار. والكتابات التي تبحث عن وجه الإعجاز كتابات موجهة للمـسلمين؛ مثـل كتابات الخطابي والرماني والباقلاني وعبدالقاهر وغيرهم. وقد كثرت الوجـوه التي عدوها وجوه الإعجاز، وسمعت من شيوخنا الذين يؤخذ عنهم العلـم أن القرآن معجز بكل هذه الوجوه وبأكثر منها، وأنّ كل ما فيه معجز؛ من أمـر، أو ي، أو خبر، أو وعد، أو وعيد، إلى آخره. وخلاصة القـول في وجـوه الإعجاز أن القرآن كلام الله، والله ﷻ موصوف بكل كمال، ومـ ه عن كـل نقص، وكذلك كلامه، وأن الكمالات المطلقة في الكلام لا يوصـف ـا إلا الذي بين الدفتين.

والذي قصدته بالمراجعة الواجبة هو أن الإعجاز له دلالة قاطعة على ثلاثـة أشياء؛ الأول: دلالته على شيء في اللغة، والثاني: دلالته على بلوغ الجيل الذي نزل فيه القرآن ذروةَ التفوق في البيان، والثالث: دلالته على بلوغ هذا الجيـل ذروةَ التفوق في معرفة أسرار البيان، الذي به يفضل بيانٌ بيانا. وأكرر أن دلالة الإعجاز هذه دلالة قاطعة، وأن دراسة هذه الجهات الثلاثة دراسةً متسعةً أمـر واجب، ولا يجوز الترخص فيه، ثم إننا أهملناه وسكتنا عنه وكأنه ليس موجودا.

أما شهادة الإعجاز لهذه اللغة فهي شهادة تقول إن نزول الكتاب المعجـز ذه اللغة العربية الشريفة جعلها اللغة الوحيدة من بين كل لغات العالم التي عبر



ا عن كلام معجز، وليس هناك كلام في أي لسان من ألسنة البشر جاء بـه كلام يوصف بأنه خارج عن الطوق ومتجاوز لحدود الطاقة الإنسانية، وهـذا واقع غير قابل للمناقشة إلا عند من ينكرون الإعجاز وهم ليسوا منا. ويمكن أن تنظر إلى هذا الأمر المنفرد نظرة سطحية وتقول إنه ليس فيه شيء، وآفة المعرفة وآفة العقل هي النظر السطحي؛ لأن الحقيقة أنه ما كان يمكن أن يـ ل ا كلام فوق طاقة البشر لولا الإمكانات والطاقات التعبيرية، والمرونة والليونة، وثـراء الكلمات، وثراء أحوال الأبنية وأحوال الصور، وكل وسـائل الإبانـة؛ مـن التعريف المبين والتنكير المبين، والحذف والذكر، والفرق بين الواو والفاء، ومـا لا حصر له مما يستثمر في الكلام العالي ويكون من وسائل الإبانة، حتى إنـك لتكون أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذ لم تبن، كمـا يقـول الكملة رضوان الله عليهم.

وعجيب أن اللغة التي هي صناعة الإنسان، والتي أراد ا أن تعبر عن ذات نفسه وعن حوائجه وعن علومه ومعارفه وعن ظاهره وباطنه، تصبح هذه اللغة بما فيها من وسائل الإبانة التي هي صناعة الإنسان متجاوزةً طاقة الإنسان الذي أبدعها، لترتقي في آفاق أخرى، وتصير معجزة ببيا ا لهذا الإنسان!

وشيء آخر هو أعجب من ذلك أن يكون الذي أعجزت فيه وبـه هـو طرائق التأليف والتركيب والسبك والنحت والتصوير؛ لأن الله سبحانه طالـب القوم بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات، أعني في أي باب مـن أبـواب المعاني، والمهم هو التركيب والتأليف، وهذا شأن لغوي محض، وشأن بلاغـي محض، والإعجاز أبان عن هذا الجانب العجيب في هذا اللسان الـصانع لهـذه





اللغة، والذي رقق حواشيها، وألان عصيها، وطرق طرائقها، وجعل من ألفاظها وأحوال هذه الألفاظ وأجراس وأنغام هذه الألفاظ - ـ جعل من كـل ذلـك مكامن للمعاني يسكنها فيها اللسانُ الحي، حتى إنك لتجد كلمـات معـدودة نسقَها المتكلم نسقًا خاصا حتى لتفيض عليك المعاني والأحوال والصور من كل شيء فيها، ومن كل حرف، ومن كل جرس.

وكان أبو الفتح ابن جني شديد الولع بالبحث في مدافن الحكمة في هـذا اللسان، وكانت تذهب به الغلواء إلى القول بأن الله ﷻ هيأ لهـذا اللـسان في الأزمنة البعيدة جيلاً من الناس كانوا أحد أذهانا، وأشد وعيا، وأكثر يقظة[1]؛ فنهجوا مناهج هذه اللغة، وطرقوا طرائقها، وأكملوها وصقلوها وثقفوها، كل ذلك إعداد لها ل ول الكتاب العزيز ا. ثم لما انتشرت في الأرض ودخلت بدين الله ما دخل عليه الليل هيأ لها جيلا من العلماء البـاحثين ليقعـدوا قواعـدها ويقرروا أصولها وفروعها حتى تبقى على ما هي عليه يوم نزل ـا الكتـاب العزيز.

وقد نبه المرحوم محمود شاكر إلى هذا التميز الذي دل عليه نزول القـرآن المعجز ذه اللغة، وأنه شهادة قاطعة بتوفر قدرات على البيان، وتوفر إمكانات في الإبانة، أعانت أصحا ا أولاً على أن يقولوا ا بيانـا يبلـغ ذروة التفـوق البياني، ثم يبقى فيها ذخر مكنون يستخرجه الكتاب العزيز، وي ل ربنـا ـا كلاما يفوق طاقة البشر. وقد تكرر هذا المعنى كثيرا في كتابات المرحوم محمود

---

(١) ينظر: كتاب الخصائص ٤٧/١.




شاكر، ومنه قوله:((إنّ اللغة التي نزل بها القرآن معجزا قادرة بطبيعتها هي أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلامٍ هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلامٍ يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه))(١). ولا يجوز أن نغفل أنّ الإعجاز كان بالتأليف والنحت والسبك والتركيب؛ لأنه هو الذي جاء فيه التحدي، وهذا يعني أن قدرة العربية على أنْ تحمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلام وكلام هو الغاية في البيان الذي تطيقه النفس الإنسانية، وكلام يجاوز هذه الطاقة، أقول: هذه القدرة هي في هذا التركيب والسبك وأحوال الألفاظ والمباني، وكما قال علماء علم الإعجاز: أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال. وبهذا طاوعت العربية الإعجاز وجارته ولانت له واتسعت، ولم تكن معجزة وإنما كان الإعجاز بها وحدها من بين لغات العالم.

ثم إنّ هذا الإعجاز للكتاب العزيز الذي هو باق ما بقي الزمن وما بقي التكليف له دلالة أخرى وشهادة أخرى لهذا اللسان، وهو أنه يوم نزل الكتاب كان قد بلغ ذروة الرقي اللغوي؛ لأن القرآن الكريم أمسك به على الحالة التي كان عليها يوم نزل الكتاب.

فدلالة الألفاظ باقية لم يتغير منها شيء، وأحوال أبنيه المفردات لم يتغير منها شيء؛ مثل تصاريف الأفعال والأسماء وجمع القلة وجمع الكثرة وما ينصرف وما لا ينصرف والتصغير والنسب إلى آخره، كل ذلك باق في ألسنتنا كما هو في

(١) مداخل إعجاز القرآن ١٦٤.





الكتاب العزيز وكما هو في شعر هذا الزمن وما قبله، وقل مثل ذلك في بنـاء الجمل وأحوال الإعراب والبناء وطرائق التعبير من حذف وذكر ودلالة الأسماء والأفعال إلى آخره. ونحن نقرأ شعر العصور السابقة لـ ول الكتاب ولا نجد أي صعوبة إلا في معرفة المفردات الغريبة، وزيادة على ذلك نتذوق شـعر النابغـة وزهير، ونتذوق الكتاب العزيز وكلام خير البرية، إلى آخر ما نحن فيه مما ليس له نظير في أمم الأرض. وكل ذلك بفضل نزول الكتاب المعجز الذي أمـسك اللغة على الحالة التي كانت عليها يوم نزل، ثم دخل ا القرآن ما دخل عليـه الليل، ثم قام على دراستها كل من قاموا على دراسة القرآن من أمـم الأرض، وكل هذا غريب وعجيب!

ثم إن الحق جل وتقدس لم يضمن لأمة من أمم الأرض حفظ لغتها إلا هذه الأمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، راجع الجملة الثانية وعلاقتها بالجملة الأولى، ومرادي أنه يستحيل أن يحفظ ربنا الذكر وتضيع لغته، ولاحظ العبارة عن القرآن بكلمة "الذكر"، ودلالة الـذكر على اللسان، وأن المحفوظ هو هذا القرآن وهذا اللسان الذي يـذكر بـه، ثم لاحظ ضمانة أخرى لبقاء عصابة في الأرض قائمة على هذا الدين إلى أن تقوم الساعة؛ لأن حفظ الذكر من القوي العزيز يعنى حفظ الـذاكرين، وأ ـم في جنب الله، وما كان في جنب الله لا يضيع.

ثم شيء آخر هو أن الإعجاز أفاد أنه ليس هناك قرآن غير معجز، فلو نقلت القرآن إلى كل لغات الأرض، فلا يجوز أن تسمي ما نقلته قرآنا؛ لأنه لا قـرآن إلا الذي في هذا اللسان العربي المبين، ومن أراد هذا القرآن فليدخله من بـاب

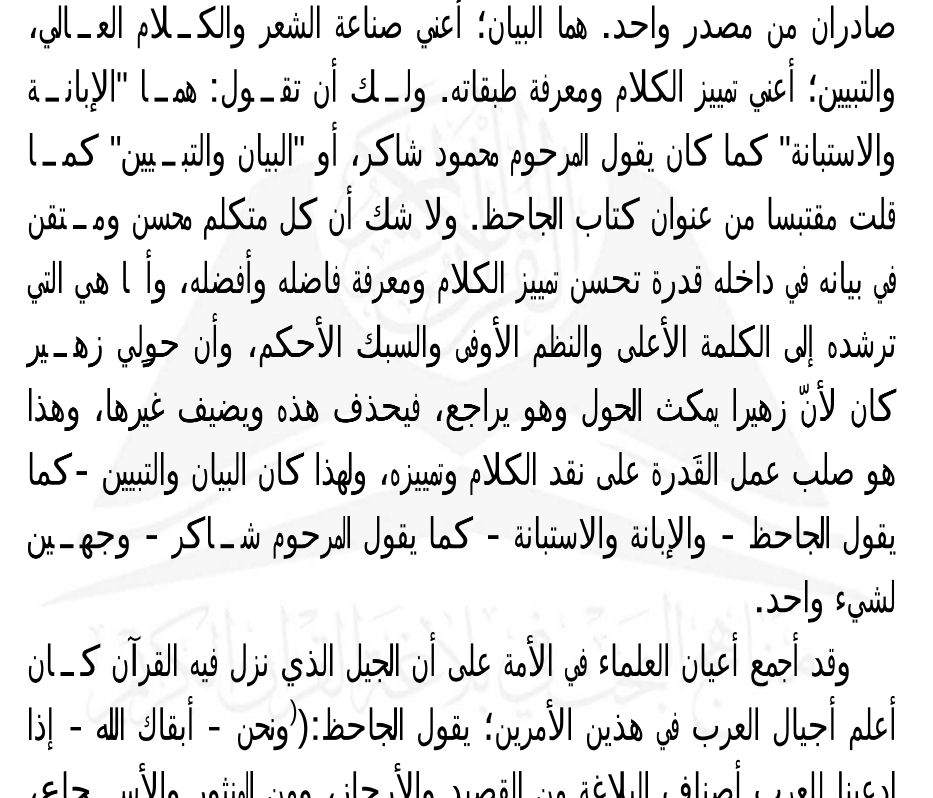



هذا اللسان العربي المبين. ويلاحظ أن الله ﷻ ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه ثم أرسل محمدا صلوات الله وسلامة عليه للناس كافة بهذا اللسان العربي المبين؛ فدل دلالة قاطعة على أن هذا اللسان العربي المبين هو أقرب ألسنة البشر إلى فطرة البيان التي فطر الله الناس عليها.

ومن الغريب والعجيب أن كل هذا غائب أو مسكوت عنه في بحوثنا وكتبنا ومناهجنا التي يعد عليها ويربى بها أجيالنا، وكان من الواجب أن يكون حاضرا، وأن تسعى أقلام العلماء والباحثين لكشف هذه الطاقات التي هيأت العربية لهذا الذي لم تتهيأ له لغة من لغات البشر، والذي تميزت به. وقد نبه الكتاب العزيز إلى أن هذا في النظم والتأليف والسبك والنحت والتصوير كما قال سبحانه في خطابه لمن تحداهم به ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود: ١٣]؛

لأن كلمة "مفتريات" أبعدت عن التحدي كل ما عدا التأليف والتركيب، وهذا يعني أن هذا التأليف والتركيب هو الطاقة والكنز المذخور في هذا اللسان، وهو الذي يجب أن تبحثوا عنه.

وكل أهل الأرض يهتمون بلغاتهم مهما كان شأنها، وأعجب مِن ترك هذا ما تراه من قشور سطحية في دراسة لغتنا في مدارسنا ومعاهدنا، وأعجب مِن كل عجب أن تمتلئ بلادنا بمدارس أجنبية ليس للغتنا فيها شيء، ولا لتاريخنا ولا لقيمنا فضلاً عن عقائدنا وآدابنا. ومراجعة كل هذا من أوجب الواجبات الذي يقتضيه رشاد العقل، ويقتضيه احترام الأمم لأنفسها ولغاتها وآدابها وتاريخها؛ هذا وجه من وجوه دلالة الإعجاز.



والوجه الثاني هو شهادة الإعجاز القاطعة على أن الجيل الـذي خوطـب بالتحدي هو خير أجيال الأرض في صناعة البيان، وخير أجيال الأرض في معرفة أسرار البيان التي ا يفضل بعضه بعضا، وسأجعل هذين في كلام واحد؛ لأ ما صادران من مصدر واحد. هما البيان؛ أعني صناعة الشعر والكـلام العـالي، والتبيين؛ أعني تمييز الكلام ومعرفة طبقاته. ولـك أن تقـول: همـا "الإبانـة والاستبانة" كما كان يقول المرحوم محمود شاكر، أو "البيان والتبـيين" كمـا قلت مقتبسا من عنوان كتاب الجاحظ. ولا شك أن كل متكلم محسن ومـتقن في بيانه في داخله قدرة تحسن تمييز الكلام ومعرفة فاضله وأفضله، وأ ا هي التي ترشده إلى الكلمة الأعلى والنظم الأوفى والسبك الأحكم، وأن حولي زهـير كان لأنّ زهيرا يمكث الحول وهو يراجع، فيحذف هذه ويضيف غيرها، وهذا هو صلب عمل القَدرة على نقد الكلام وتمييزه، ولهذا كان البيان والتبيين -كما يقول الجاحظ - والإبانة والاستبانة - كما يقول المرحوم شـاكر - وجهـين لشيء واحد.

وقد أجمع أعيان العلماء في الأمة على أن الجيل الذي نزل فيه القرآن كـان أعلم أجيال العرب في هذين الأمرين؛ يقول الجاحظ:(ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسـجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أنّ ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشـعر النـاس




اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثلَ ذلك إلا في اليسير، والنبذِ القليل))[(١)].

والجاحظ إمام متبع ولا يجهل قدره من يعرف أقدار العلماء، وكان يمثل ذروةَ العلم بالشعر، كما كان سيبويه والخليل يمثلان ذروة العلم بالنحو، ولم ينتفع عبدالقاهر في تأسيس علم البلاغة بأحد كما انتفع بهؤلاء الثلاثة. وكلامه هذا فيه شهادتان؛ الأولى: فضل العرب - أعني الجيل الذي نزل فيه القرآن - على الأمم كلها في البيان، ثم فضل هذا الجيل على الأجيال من بعده، وقد دل الجاحظ على هذا الثاني بقوله:("لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثلَ ذلك"). وتذكر أنّ هذه الشهادة وإن كانت في البيان فهي متضمنة شهادة لهذا الجيل في التبيين؛ لأنّ الجاحظ هو صاحب كلمة البيان والتبيين، ولم أرهما عنوانا لكتاب قبله ولا بعده، فهو صاحب هذا الاقتران الجليل بين هاتين القوتين من قوى النفس الإنسانية.

ويقول عبدالقاهر وهو يجعل القدرتين - القدرة على صناعة البيان، والقدرة على معرفة طبقات البيان - قدرةً واحدة، وأن الأصل في هذه القدرة الواحدة والقدوة هم العرب، قال رحمه الله في مقدمة "الرسالة الشافية":("معلوم أن سبيل الكلام سبيلُ ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غاياتٍ ينأى بعضها عن بعض، ومنازلَ يعلو بعضها بعضا، وأنّ علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي ﷺ الذي نزل فيه الوحي،

---

(١) البيان والتبيين ٢٩/٣.





وكان فيه التحدي، أ م زادوا على أولئك الأولين، أو كَمَّلُوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكْملُوا له. كيف؟ ونحن نراهم يخمِلون عنهم أنفُسهم، ويبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلاً عن الزيادة عليهم") [1]، ثم استشهد عبدالقاهر بأقوال لأهل البلاغة في الزمن المتأخر عن زمن الوحي، وأ م كانوا يقولـون: كيف نجاريهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم؟! وهذا مشهور وعليه الإجماع. وإنما ذكرت كلام الشيخين أبي عثمان وعبدالقاهر لأ ما أكبر قمتين في علم بلاغة هذا اللسان الشريف.

قلت: إن إعجاز القرآن فيه شهادة قاطعة لهذا الجيل بالتفوق الذي لا ينازعه فيه جيل آخر في هذين البابين: باب صناعة البيان، وباب العلم بمراتب الكـلام وتفاضله، وتلاحظ هذا في نص عبدالقاهر؛ لأنه لما قال: والقدوة فيه العـرب، وأنه لا يجوز لمن تأخر عن زما م أنْ يدعِي الزيادة عليهم، ذكر التحـدي؛ لأن التحدي لا يوجه إلا للأقوى. ثم إن رسول الله ﷺ علم ذلك في قومه، وعلـم أ م حين يسمعون ما أنزله الله عليه لا يشكون لحظة أنه لـيس مـن جـنس كلامهم؛ لأ م يعلمون العلم القاطع الفرق بينه وبين كلامهم، ولأنه عليه السلام أول من واجه هذا لما أنزل الله عليه الآيات الأولى من سورة "اقرأ"، كـان عليه السلام أول من أدرك أن هذا كلام الله، ولذلك لم يكن عليه السلام يزيد في دعوة الناس إلى الدين عن قراءة القرآن، فلم يدخل مع أحد في جدال ولا في حوار ولا في شيء مـن ذلك، وإنما كان يسمعهم آيات الله، وهو يعلم علم اليقين أنّ هذا السامع متيقن

(١) الرسالة الشافية ٥٧٩، ملحقة بدلائل الإعجاز.

أن الذي يسمعه ليس من كلام الناس، فإن اهتدى فبفضل من الله، وإن انصرف فليس ذلك عن قصور في الدليل، وإنما هو العناد والخذلان.

وقد ذكر المرحوم محمود شاكر أن القدرة على تمييز البيان الذي هو غاية الطاقة الإنسانية، والبيان الذي تجاوز هذه الطاقة، ما كان يمكن أن تتوفر هذه القدرة لهذا الجيل إلا("بعد الدربة الطويلة المتوارثة، ثم لا يبلغ هذه المرتبةَ من القدرة على الفصل في هذه الآية الفريدة في تاريخ الألسنة البشرية، إلا بعد أن يمارس الفَصل والتفضيل والممايلة والمقايسة على ضروب من الكلام قد بلغت القمة الشامخة في البيان الإنساني، أو على الأصح بلغت من النقاء والدقة والأناقة واللطف أقصى غاية، وبلغت من العمق في الدلالة بالألفاظ والتراكيب والصور أقصى التوتر المفضي إلى سر البيان الكامن في نفوس البشر، وإلا يكن ذلك كذلك فإنّ اختراق الحاجز بين البيان الإنساني والبلاغ الإلهي الملفوظ يكاد عندئذ يبلغ حد الاستحالة")[1].

والقدرة على اختراق الحاجز بين البيان الإنساني والبلاغي الإلهي، تكررت بمعناها كثيرا في كلام المرحوم محمود شاكر والباقلاني، وأن سبيلها سبيل واحد؛ هو تكوين الذائقة البيانية التي لم يعول الكتاب العزيز إلا عليها في آية سيدنا رسول الله ﷺ، وأنّ ضروب الكلام التي بلغت القمة الشامخة من البيان الإنساني هي الشعر الجاهلي؛ لأنه لم يكن بين يدي جيل المبعث سواه، وأنه هو المادة المتوارثة، وأنّ طول المزاولة لهذا اللون من البيان هو الذي أفضى بهذا الجيل إلى

---

(١) قضية الشعر الجاهلي ١١٧، ١١٨.



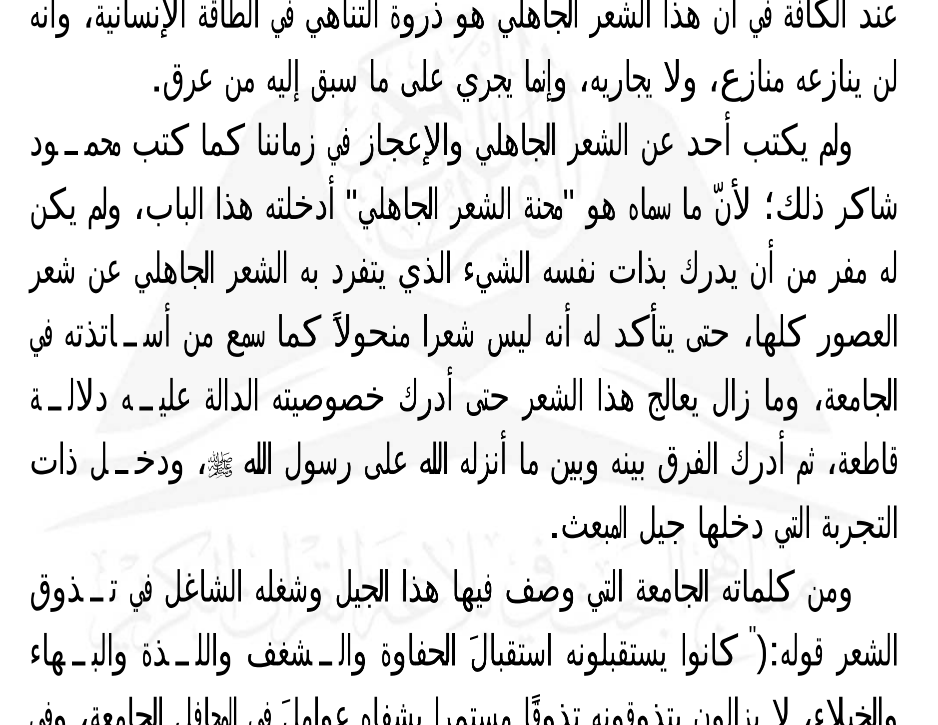

سر البيان الكامن في نفوس البشر، وهذا الإفضاء ـاية الخبرة بمعرفـة طبقـات الكلام، وأنّ إدراك التفاوت بين هذه الطبقات ومعرفة الفرق بين النابغة وزهير وامرئ القيس والأعشى معرفة متأخرة جدا بالنسبة إلى معرفة سر البيان الكامن في نفوس البشر، الذي يسميه الباقلاني "ـاية الطوق"، ويسميه شاكر "اختراق الحاجز". وهذا النص يبين سر تفوق هذا الجيل في نقد الكـلام وتمييـزه، وأنّ وصوله إلى سر البيان الكامن في نفوس البشر هو ـاية الطوق الذي لا يتجاوزه إلا البلاغ الإلهي.

ويصف المرحوم محمود شاكر الشعر الجاهلي بأنّ فيه صفات مربية على كل الصفات التي في آداب الأمم كلها إرباء حقيقيا، وأنّ هذا الإرباء يدرك بالتأمل والتبيين، وأنّ هذا التفوق البالغ للشعر الجاهلي على كل آداب الأمم مـدلول عليه بأمر إلهي، وهو المطالبة الفريدة لجنس واحد من البشر، في زمن واحد من الأزمنة، ختمت بآيته النبوةُ في الأرض إلى أن تقوم الساعة، والمطالبة التي هـي دليل تفوق هذا الشعر الجاهلي على كل بيان إنساني هي أن يأتوا بسورة مـن مثله، سواء كان ذلك من إنشائهم أو من محفوظهم، فكل الذي في صـدورهم وأفواههم لا يحصل سورة من مثله، أعني سورة "إنا أعطيناك الكوثر"، وهـي سطر واحد، وهذا ما نلقى الله عليه.

وكان المرحوم محمود شاكر لا يملّ من الإشارة إلى شـغف هـذا الجيـل بالشعر، وحبه له، وولَعِه به، وطول تأمله له، ولم يكن هذا شيئًا جديـدا؛ لأنّ كلام علمائنا متظاهر في أن القوم كانوا رواة أشعار، وكان يحفظ بعضهم شعر بعض، وكانوا يحفظون شعر من سبقوهم، وكان الشعر شاغلهم، ولم يشغلهم







عنه شاغل. ولكن المرحوم شاكر أكثَر بيانَ ربطِ هذا بالإعجاز، وأنّ هذا الجيل يأ ذا لمعرفة أمر صعب جدا، وهو اية القدرة الإنسانية في صناعة البيان التي كان يعبر عنها الباقلاني بالتناهي، ثم إدراك ما فوق هذا التناهي وهـو الـبلاغ الإلهي كما يقول شاكر، أو الأمر الإلهي كما يقول الباقلاني، ثم اليقين الـذي عند الكافة في أن هذا الشعر الجاهلي هو ذروة التناهي في الطاقة الإنسانية، وأنه لن ينازعه منازع، ولا يجاريه، وإنما يجري على ما سبق إليه من عرق.

ولم يكتب أحد عن الشعر الجاهلي والإعجاز في زماننا كما كتب محمـود شاكر ذلك؛ لأنّ ما سماه هو "محنة الشعر الجاهلي" أدخلته هذا الباب، ولم يكن له مفر من أن يدرك بذات نفسه الشيء الذي يتفرد به الشعر الجاهلي عن شعر العصور كلها، حتى يتأكد له أنه ليس شعرا منحولاً كما سمع من أسـاتذته في الجامعة، وما زال يعالج هذا الشعر حتى أدرك خصوصيته الدالة عليـه دلالـة قاطعة، ثم أدرك الفرق بينه وبين ما أنزله الله على رسول الله ﷺ، ودخـل ذات التجربة التي دخلها جيل المبعث.

ومن كلماته الجامعة التي وصف فيها هذا الجيل وشغله الشاغل في تـذوق الشعر قوله:(" كانوا يستقبلونه استقبالَ الحفاوة والـشغف واللـذة والبـهاء والخيلاء، لا يزالون يتذوقونه تذوقًا مستمرا بشفاهٍ عوامِلَ في المحافل الجامعة، وفي الوحدة المتمطّية م مع آناء الليل وأطراف النهار. كان تذوق الشعر هو عملَ النفس العربية الجاهلية، لا تأخذها عنه فترةٌ ولا ملل، بل تز وتنشط وتبتـهج، وتجد و زل، وتنبسطُ وتنقبض، وتجد فيه لذة الحياة التي تخالط الأحياء بالليـل

والنهار، فهي عليه وعلى ما تجد له من الأريحية أشد حرصا من حرصها على كل نفيسٍ وغالٍ))[(١)].

وذكر حازم القرطاجني أن الجاهليين كان في أيديهم أصول في نقد الشعر وتقويمه كانت موضع اتفاق بينهم، وأنهم كانوا يقومون على تثقيف أنفسهم، وصقل مواهبهم، وكان يستدرك بعضهم على بعض في ضوء هذه الأصول المتفق عليها، وأنّ هذه الأصول مفرقة في الكتب، وأنّ الذي عنده مكتبة جامعة يستطيع أن يجمعها منها، وأنها هي التي أُخذت منها قوانين البلاغة التي بين أيدينا[(٢)]. وهذا أدخل في باب اكتساب هذه المقدرة المتميزة من كلام الأستاذ محمود شاكر؛ لأنّ محمودا ذكَر ولَعهم بالشعر، وحازما ذكر شغلهم بأصول في نقد الشعر وتقويمه مسلمًا، وأنه كان يستدرك بعضهم على بعض في ضوئها.

وهذا كله غائب، وحاضر بين أيدي أبنائنا أن حازما نقل إلينا بلاغة اليونان، فغابت الحقيقة وحضرت الأكذوبة، ورحم الله محمد بن إدريس الشافعي فقد قال:

((فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلّم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلّم فيه منه، لكان الإمساك أولى به، وأقرب إلى السلامة له إن شاء الله))[(٣)].

---

(١) قضية الشعر الجاهلي ١٠٢.

(٢) ينظر: منهاج البلغاء ٢٦.

(٣) الرسالة ٤١.





قلت: أجمع من يعتد بإجماعهم من القدماء والمحدثين أنّ إعجـاز القـرآن وقرينه التحدي دل دلالة قاطعة على أنّ الجيل الذي خوطب بالتحدي قد بلـغ ذروة ما بلغه أي جيل من أجيال البشر في أمرين؛ الأول: القدرة التي لا تنازع في صناعة البيان، والثاني: القدرة التي لا تنازع في معرفة طبقات الكلام ومراتبه ومنازله، وقد لخص المرحوم شاكر هذا الأمر حين بين أنه لابد أن يكون هـذا الجيل الذي جعله الله ﷻ قائما مقام الأجيال كلها في التحدي قد بلغ في القدرة على تمييز صنوف الكلام مبلغا لم يبلغه جيل قبله، ولن يصل إليه جيل بعـده، وأنْ يكون بيانه الذي كان مقصودا بالتحدي بيانا قد بلغ غاية ما يبلغه بيـان الناس عربا وغير عرب[1].

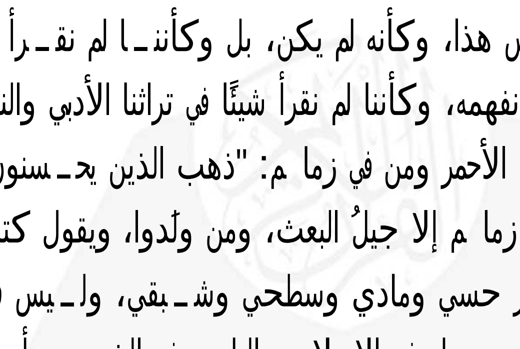
ويمكنك أن تستخرج بلوغ بيا م غاية ما يبلغه بيان الناس عربا وغير عرب من قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود: ١٣ – ١٤]، الاسـتفهام في قوله تعالى﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾معناه الأمر، وموضع الشاهد هو قوله تعالى ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ ﴾ لأنّ ترتيب الأمر بالعلم بأنه أُنزل بعلم الله على عدم استجابتهم قاطع في أنه لن يأتي جيل بعدهم هو أقدر منهم في البيان، ولو كان سبحانه يعلم ذلك ما رتب وجوب العلم بأنه كلامه على عجزهم؛ لأ ـم إن عجزوا فقد يستطيع غيرهم. وهذا بين في أنّ تفوق هذا الجيل دلّ عليه شـعره

(١) ينظر: مداخل إعجاز القرآن ١٦٥.





الذي فيه صفات مريبة إرباء حقيقيا عن كل الذي في صفات الشعر، ودلّ عليه إجماع الأمة، ودلّ عليه النظر المنطقي المستخلص من توجيه التحدي لهم، ثم دلّ عليه النقل.



ومع كل هذا الذي لا ريب فيه نكتب في الشعر في العصر الجاهلي والنقد في العصر الجاهلي عكس هذا، وكأنه لم يكن، بل وكأننا لم نقرأ الشعر الجاهلي، أو قرأناه ولم نفهمه، وكأننا لم نقرأ شيئًا في تراثنا الأدبي والنقدي، وقول أبي عبيدة وخلف الأحمر ومن في زمانهم: "ذهب الذين يحسنون فهم الشعر"، ولم يذهب في زمانهم إلا جيلُ البعث، ومن ولَدوا، ويقول كاتبنا في الشعر الجاهلي: إنه شعر حسي ومادي وسطحي وشبقي، وليس فيه إلا الغريب، ودعك من أنه منحول في الإسلام. والبلوى في الذي بين أيدينا، وأن النقد في هذا العصر نقد سطحي وانطباعي، وبدايةٌ لعلمِ قومٍ يتعلمون بدايات النقد، ولا يجوز بقاء هذا، وإنما الواجب المراجعة، ليس لأنه نقض لآية النبي ﷺ، وإنما لأنه نقض للفهم، ونقض للذوق، ونقض للتاريخ. ولم أقرأ كلمة واحدة مما يكتب عن العصر الجاهلي في الشعر والنقد في كلام علمائنا، وإنما ظهر هذا الجهل وهذا التزوير وهذا الكذب على العلم والعقل والنقل والتاريخ بعد زمن الاستعمار، وقرأت أسوأ منه في كلام بعض المستشرقين، وهم لا يلامون لأنّ الأدب ليس أدبهم، والتاريخ ليس تاريخهم، وقضية الإعجاز ليست قضيتهم، إنما العجيب أن ينقل إخواننا هذه السخائم ويعدوها علما، وبدلاً من أن يصححوا هذه الخطايا صيروا أنفسهم تلاميذ لأعدائهم ينقلون عنهم ما يسيء إلى الواقع والتاريخ والدين. ويضع أحد الكُتاب الذين يأخذ عنهم صغارنا كلمةَ "الشبقية"





- ومعناها الولع الجنسي - عنوانا لدراسة شعر امرئ القيس شاعر شعراء الجاهلية!

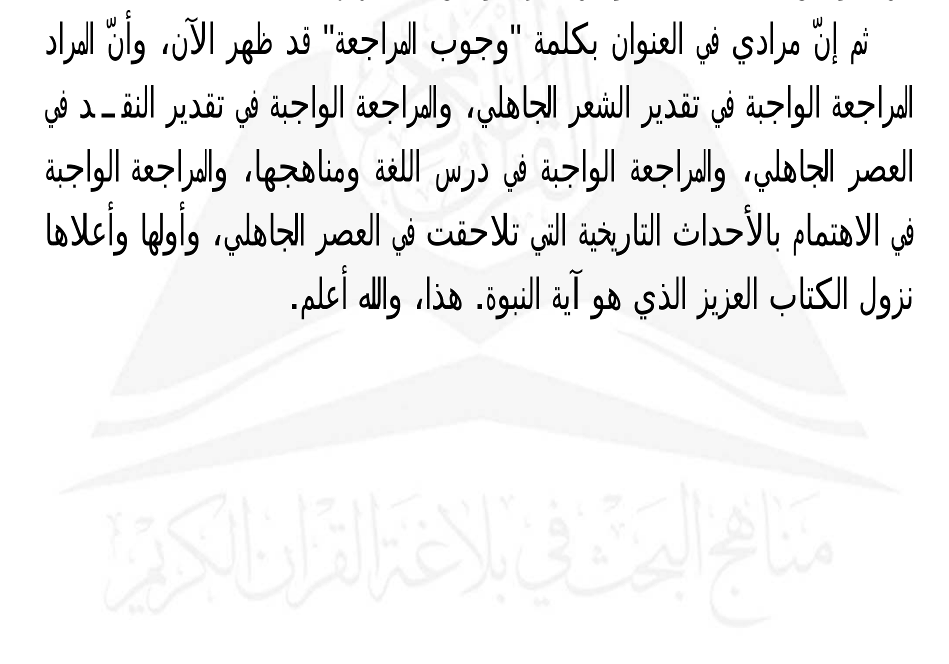
وقضية الإعجاز قضيه أدبية من الرأس إلى القدم، وعبدالقاهر الذي كتب أوسع ما كُتب في هذه القضية يؤكّد أنّ الشعر - يعني الجاهلي - هو المدخل الذي ليس لنا سبيل إلى دراسة الإعجاز إلا منه، وأنّ الصادين عن الشعر صادون عن الإعجاز، وهم بمنزلة من يمنع الناس من تلاوة القرآن الكريم؛ لأنّ المقصود من التلاوة أن تظل المعجزة قائمة في الأمة. ومِن قبله قال الباقلاني إنه لا يمكننا أن نكلم في الإعجاز من كان عن دراسة الأدب بمعزل، وله في كتابه دراسات في علم نقد الشعر والأدب ليس لها نظير في الكتب المتخصصة مثل الموازنة والوساطة. ولا وجه لإبعاد دراسة الإعجاز عن الدراسة الأدبية حتى إنك تفهم من كلام الباقلاني وعبدالقاهر أنّ دراسة الإعجاز بمعزل عن الشعر دراسة للإعجاز بمعزل عن الإعجاز. وذكر المرحوم محمود شاكر أنّ من يدرسون الشعر الجاهلي في غيبة قضية الإعجاز هم بمثابة من يدرس الشعر الجاهلي في غيبة الشعر الجاهلي نفسه، وله في هذا كلام متسع جدا ومفيد جدا، ومنه قوله:"(لا يجوز لأحد عاقل أن يسقط هذه الحقيقةَ من الدراسة الأدبية - وأراد حادثة نزول القرآن المعجز - لأن معنى إسقاطها من الدراسة هو عزل حقيقة في عصر بعينه عن عصرها وعن أصحابها، ثم دراسة هذا العصر مجردا من الناس الذين كانوا فيه، والذين كانت هذه الحقيقة قائمة فيهم وفيهم. ولو فعلنا لكان معنى ذلك أننا ندرس عصرا فارغًا من أهله من البشر، وهذا عبث





فارغ، بل جهل، بل هو جنون مطبق على الأصح))[1]. لا يستطيع أحد أن يقول إن محمود شاكر يكتب بغير علم، أو أنه لا يحسب حساب كل كلمة يكتبها قلمه، والمسألة واضحة جدا لأنّ أي مبتدئ في الدرس يعلم أن أي دراسة لأي عصر تسقط من أحداثه أكبر حدثٍ هو عبث، سواء كان الدارس من المؤمنين بهذا الحدث، أو من غير المؤمنين به، المهم أنه حدثَ حدثٌ.

ثم إنّ مرادي في العنوان بكلمة "وجوب المراجعة" قد ظهر الآن، وأنّ المراد المراجعة الواجبة في تقدير الشعر الجاهلي، والمراجعة الواجبة في تقدير النقد في العصر الجاهلي، والمراجعة الواجبة في درس اللغة ومناهجها، والمراجعة الواجبة في الاهتمام بالأحداث التاريخية التي تلاحقت في العصر الجاهلي، وأولها وأعلاها نزول الكتاب العزيز الذي هو آية النبوة. هذا، والله أعلم.



---

(١) قضية الشعر الجاهلي ٩٦.





أهم المراجع

- إعجاز القرآن، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، شـرح وتعليـق: د. محمـد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ه = ١٩٩١م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتـاب العـربي، بيروت، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.
- الرسالة الشافية، عبد القاهر الجرجاني، مطبوعة مع "دلائل الإعجاز"، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.
- صحيح البخاري(مطبوع مع شرحه فتح الباري)، محمد بن إسماعيل البخـاري، المكتبـة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- صحيح مسلم بشرح النووي، عني بنشره: محمود توفيق، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، جـدة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- مداخل إعجاز القرآن، أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، جـدة، الطبعـة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٦٦م.